

في رثاء الرمادي المدينة الجميلة التي صارت أنقاضا



أسعد البصري
كاتب عراقي

□ إذا كانت الفلسفة هي تفكير العقل بالعقل، فالتطرف الديني هو تفكير الجنون بالجنون. لقد تم احتجاز أعداد كبيرة من البشر في حكاية وهمية اسمها صدام حسين. البلاد سجن حديدي ومع الزمن تحول إلى نمط حياة وتفكير. الرئيس مثله مثل معظم العرب، عنده مشكلة في فهم العالم، في العقل أيضا.

هو القائد العام للقوات المسلحة، وهو من تحدى الغرب، وهو من فر من بغداد حين دخل الأميركيان؟ أعدم مليون شاب عراقي إسلامي على اعتبار علماني، بعدها أطلق حملة إيمانبة وصار يلقب نفسه بـ"عبدالله المؤمن" وحمل القرآن إلى المشنقة، ماساتنا في جوهرها حضارية.

كل ذلك المال والسلطان لم يجد حلا لمشكلة الزعيم، لقد افقنا على احتلال العراق، وبدلا من أن نجلس ونفكر بما حدث كل تلك السنين، صارت إيران تريد أن تنتقم، والشيعي يريد أن ينتقم، والسني يريد أن ينتقم. كله عبث في عبث.

حدثت فضيحة ثقافية منذ عام 2003 فقد سقط الدكتاتور وصار علينا اكتشاف أنفسنا. وكانت الصدمة بهجوم رجال الدين على عقولنا. الإسلام يسمي العقل السابق لظهور الإسلام "جاهلية" ويطلق ذات الكلمة على نمط حياة المواطن الغربي، التي يرى فيها خروجاً على الدين فكريا وسلوكا، وصار الدين "علما" ورجل الدين يسمي نفسه "عالما" ضاربا بعرض الحائط كل العلوم الإنسانية الحديثة التي تصطم جوهرها مع أفكاره.

قدر المثقفين اليوم أن يكونوا مفترقا للطرق في هذه المتاهة. أوديسيوس يضل ويتلته دروب سحرية، غير أنه يعود في النهاية إلى بينيلوبي ويربي بقوسه. قدر الكاتب أن يغني لمدائن ملعونة، ومختومة بغضب الملوك. يجرحك التيار ولا تنجرف.

الموصل مثلا هي نفسها الموصل، مدينة عظيمة باهلها وتاريخها. في يوم من الأيام كانت رمزا للتعايش بين الأقليات والديانات، حتى الوثنية منها وغير الكتابية. كانت معروفة بشغف أهلها بالعلوم والسفر والفكر المنير، وفي هذه السنوات الأخيرة هيمن الظلام والتطرف وحكمها داعش.

في كل الأحوال نُدافع عن المدينة ولا ندعو إلى حرقها، ولا ذبح أهلها. ما حدث هو حرائق السياسة والانزلاق العقل.

المعتزلة قالوا الإمام هو العقل، ولكن تم القضاء عليهم. العقل صار هو النص الديني، أو الإمام "يدور الحق معه أينما دار" وهو القرآن الناطق المعصوم، وولده إمامان قاما أو قعدا. استقلال العقل بالفكر الديني. وكيف يكون وجه الظلام والقرون الوسطى؟ إن لم يكن هذا الرجل الذي يقطعون يده في ساحة عامة بالموصل لسرقة دراجة هوائية، وهو يصبح بأعلى صوته "دولة الإسلام باقية" في القرن الحادي والعشرين، فهو لا يجد في نفسه "حرجا" من هذه الوحشية.

ولماذا لا يصغي إليك الناس إذا كنت واحدا منهم؟ حين تاه بنو إسرائيل تاه موسى معهم، وكان ذلك رمزا للإخلاص اليهودي. حين تشرب ضلالات الناس وسمومهم وتنجو، حين تسمعهم وتنبعهم، عليهم أيضا أن يسمعوك حين تنهدم المدن وتنهار الحضارة والعمران.

لقد اكتشفنا بأن صدام حسين كان يمنعنا من فهم العالم، وهو نفسه لا يفهمه، وحين أسقطه الأميركيان صار علينا مواجهة كل شيء دفعة واحدة. الماضي والحاضر، الذكريات والإحلام. اليوم وأنا أنظر إلى أنقاض الرمادي، لا أرى الأمر مجرد حرب، ولا مجرد إرهاب، هذه الأنقاض هي الدماغ العراقي نفسه.

دماغ مخرب ومريض ومحلّم بالحرمان والحجب والقمع، الحقيقة هي أننا اكتشفنا الحقيقة. فكل ما نقوله ونعتقد به لا أساس له من الصحة. الحضارة الغربية انفتحت أمامنا فجأة، الطعام دخل بعد حصار، الدولار صار يمشي بالأيدي. القنوات الفضائية

انفجرت فجأة بعد كتمان. فظهر دماغنا أمام عيوننا، فارغا ولا قيمة له. ورجع السؤال الديني والكلام المقدس ومذابح الملل والنحل.

كل ذلك فضح الجنون العراقي. منذ متى يتكلم الصبيان بالعقائد، ويردون مقولات فصيحة من العصر الحجري؟ إنه انهيار العقل بالصدمة، حتى قرقعة السلاح هي لإسكات الوجع العقلي، تحشيد الجماهير والملايين هو لإخراس السؤال بالضجيج.

الدول تشتري القنابل للدفاع عن المدينة، والحمقى يشترون القنابل لهدم مدينتهم وبيوتهم. الرئيس الأميركي أوباما لم يرسل جيشا لقتال داعش «لا جنود على الأرض» ما معنى هذا؟ طائرات في السماء تحلق فوق الزومبي والمجانين أي الدواعش والميليشيات، شيعة وسنة يتذابحون، معنى رمزي حزين

فبدلا من أن تتساعل عن قيمة الإمام العسكري، وما هي أهميته في التاريخ؛ رجل كان لا يكلم الناس إلا من وراء حجاب من الخوف، وسيطر على دعوته داعية أصبح سفيرا للإمام المهدي الغائب "غيبية صغرى" فيما بعد. يكون الجواب بزيارة مليونية للضريح، وكان الملايون سيجيب عن السؤال التاريخي.

لقد اتضحت أمامنا مشكلتنا، تلك المشكلة التي بذت نطفنا وثرواتنا، وهدمت بيوتنا وحقولنا لنصف قرن، وهي مشكلة ثقافية بالأساس. بعد الاحتلال حط الغرب بكل ثقته على بغداد، فهرب الشيعة إلى إيران من هذا الرعب "رعب العقل" وهرب السنة إلى التاريخ والفنوحات والشهادة والجهاد. الغرب ليس حقيقة سهلة، فقد اكتشفنا

بان تربية الأطفال والتعليم والقانون والحب والزواج والجنس والفنون والحرية كل ذلك خطأ في خطأ عندنا، ولا جدوى من قتلنا لبعضنا البعض. إن ذلك يزيد من خوف الناس منا واحتقارهم لنا. صرنا نخاف أن نقول إننا عراقيون للأجانب، بسبب الأخبار والمذابيح. إن سمعة البلاد هي الجريمة والجنون من الصعب أن تربي الأطفال على الحرمان ثم تطالبهم بقبول الحقيقة، وهي أننا كنا مخطئين في فهمنا للعالم.

الخليج ابتدع فكرة أصيلة؛ وهي أن يكون الحرمان ثقافيا فقط وليس اقتصاديا، ومع الزمن والتعليم يتم تخفيف الثقافة الدينية. المشكلة في العراق حرمان ثقافي واقتصادي وجنسي وفجأة احتلال وانفتاح. انفجر الدماغ وتفجرت البلاد وتحطمت البيوت. الإنسان وحش كاسر إذا تم حصاره. الشعب أساسا مخب وعرج عقليا وحصيلة حرمان، لا يتحمل مؤامرات ولا مخططات سياسية.

الشعب العراقي واجه نفسه لأول مرة واكتشف بأنه ممنوع من السفر عالميا. جوازه غير مقبول في المطارات والمسالة في الحقيقة ليست منع صدام حسين لهم من السفر فقط. واكتشف بان الدين ليس حقيقة عالمية فالعالم يسير بنهج علماني، واكتشف بان كل كلامه ومعتقداته ليس كما كان يظن في الماضي، بل هي هذا اللغو المعروض في مليون فضائية، وأنه يعيش حياة حرمان بلا سبب ولا معنى.

لا بد أن ذلك بسبب السني أو بسبب الشيعي، وبدا الأخ يقتل أخاه لأنه لا يوجد حل آخر لتخفيف الوجع الفلسفي، وجع تلك اللحظة الرهيبة حين يكتشف الشعب حقيقته.

أحيانا نمتلك إحساسا مختلفا بالأشياء. ما هو شعورك وأنت ترى الرمادي أنقاضا؟ كل هذه الأموال والأرواح والذكريات تم هدرها، فما معنى هذا؟ بحق لك أن تكلم نفسك وتغضب وتسكر وتهيج وتضرب رأسك بالحائط لكي تخرج فكرتك الأساسية.

لا نستطيع أن نبقى أسرى لمعادلة طويلة لا نهاية لها، هذا فجر وهذا قتل وهذا سرقة. لا بد من وجود مكان ما في خاصرة الالم العراقي يفسر لنا ما يجري على نحو مختلف. أعتقد بان العقل القديم يحتضر، فهو ليس عاجزا عن تفسير ما يجري فقط، بل هو -وعلى نحو خاص- السبب في كل ما يجري.

ابن الرمادي الذي ذهب للقتال دافعا عن مدينة الفاو ثمانينات القرن الماضي يرى مدينته الحبيبة أنقاضا، وبأيدي أهل الرمادي أنفسهم. جنود في داعش وجنود في الجيش. المدينة احترقت والأطفال نازحون. أي معنى لعقيدة وفكرة، وأي قيمة لنصر إذا كانت النتيجة التي يراها الأجنبي من بعيد هي أن هؤلاء الحمقى يهدمون مدنهم، وليس هذا فقط بل هناك حمقى يتوعدون بالانتقام. تنتقم كيف؟ تهدم البصرة الفيحاء وتشرذ أطفالها؟ أم تهدم كربلاء الجميلة وتشرذ عجائزها؟ هذا الجنون أصبح وجعا في الضمير يجب أن يتوقف وإلى الأبد.

الدول تشتري القنابل للدفاع عن المدينة، والحمقى يشترون القنابل لهدم مدينتهم وبيوتهم. الرئيس الأميركي أوباما لم يرسل جيشا لقتال داعش «لا جنود على الأرض» ما معنى هذا؟ طائرات في السماء تحلق

فوق الزومبي والمجانين أي الدواعش والميليشيات، شيعة وسنة يتذابحون، معنى رمزي حزين. وزير الخارجية السعودي عادل الجبير فهم العراق وقال "إذا لم تتم السيطرة على هذا الانشقاق الطائفي الذي تتزعمه إيران، فلن يتم حل المعضلة العراقية". إن ما يجري يشبه الطاعون العظيم الذي أصاب لندن في القرن السابع عشر. فقد أخذ الناس يبحثون عن بائعات الهوى للإصابة بالسفلس. ساد اعتقاد حينها بان الإصابة بالسفلس تمنح المريض مناعة من الطاعون. وهذا الوهم نفسه حدث في العراق، فقد اعتقد السنة أن الإصابة بوباء داعش تحميهم من الوباء الطائفي الإيراني. والنتيجة هي هدم المدينة والعمران وذبح الإنسان.

جماعة «ميري كريسماس» أحيوا العروبة ثقافة وانتماء



نبيل عودة
كاتب فلسطيني

□ المسيحية الشرقية خسرت من وزنها الديموغرافي، فالعديد من أبنائها في تقلص دائم ومتواصل، ليس بسبب العنف والقتل فقط، بل أيضا بسبب الهجرة هربا من الاضطهاد الرسمي وغياب أي حماية من الأنظمة، ولا نجاهل العنف الدموي للتحرف الإسلامي قبل الدواعش أيضا.

المسيحيون العرب وعدد هائل من المسلمين أيضا يهاجرون بحثا عن مستقبل آمن في دول تعلمنا أن نكرهها ولكننا نصبو بكل طاقتنا للحصول على إقامة وعمل وتعليم في ربوعها.

لا أعرف دوافع عضو اللجنة المركزية لحركة فتح جبريل الرجوب، لكنها سقطة لا تليق بقائد فلسطيني يمثل الشرعية الفلسطينية.

المسيحيون العرب وفي فلسطين خاصة، شكلوا التيار القومي العربي وطرحوا فكرا قوميا عربيا رافضين كل حركات التتريك أو البقاء ضمن الإمبراطورية العثمانية. والمسيحيون العرب أخذوا اللغة العربية من التتريك. وهم أول من أدخل الطباعة للشرق العربي على أيدي الإباء اليسوعيين في لبنان. والإرساليات المسيحية هي أول من أنشأ المدارس للتثوير وتعليم أبناء العرب. المسيحيون هم أول من أنشأ

المستشفيات وأحضر الأطباء والدواء في وقت لم يكن من علاج إلا وصفات لم نستطيع مواجهة الحالات المرضية الصعبة وحالات الجراحة. المسيحيون العرب أبداعوا في الثقافة العربية وحرروها من سجن التخلف والأمية التي سادت بفضل العثمانيين لـ600 سنة وأعطوها روحا ومكانة بين ثقافات الشعوب. وهل ننسى أن كل أدياء المهجر كانوا جميعهم من المسيحيين فقط، من جماعة "ميري كريسماس" يا رجوب!

مع رجوب ودونه يتواصل التعامل مع المسيحيين العرب كجسم غريب، تتواصل الاعتداءات التي لا تصد بما تستحقه من حزم، ما زال الخوف يسيطر على الطوائف العربية المسيحية رغم الأصوات العقلانية، لكن الصوت لا يملك أساننا وأظافر قادرة على الفعل الدفاعي، هنا لا بد من دور فعال وحازم للأنظمة التي من المفترض أن يشكل الرجوب أكثرها تنويرا وعدالة في التعامل مع المسيحيين الفلسطينيين، لكنه ليس قنعة وبلق ربعه. هل هي سياسة جديدة يحاول عبثها الرجوب أن يفوز برئاسة

السلطة الفلسطينية عبر إيجاد القبول في أوساط إسلامية معينة؟

الموضوع ليس جديدا، الاضطهاد الذي يعاني منه مسيحيو الشرق، لا يقع بعيدا عن الواقع الأسود للعالم العربي الذي يدفع ثمنه الجمع، مسلمون ومسيحيون.

حتى دون داعش، هناك الآلاف من الفتاوى التي تحرض على المسيحيين وتدعو لمعاداتهم وعدم المشاركة بأعيادهم وبنذهم وما هي دب، وهذه الظاهرة بدأت تسود في مناطق السلطة الفلسطينية وفي غزة، وللأسف في أوساط هامشية داخل المجتمع العربي في إسرائيل. تصريحات الرجوب ستعطي شرعية مشوهة ودفعة قوية لهذه الظاهرة السلبية على المسيحيين والمسلمين سوياً.

هناك الآلاف من الخطب الدينية شكلا والعنصرية مضمونا، يضح بها الفضاء العربي دون رقيب، دون أن تشعل الأضواء الحمراء لما يريد للمجتمعات العربية من أن تقبر مستقبليها فيه فلماذا يزودها الرجوب بالوقود.. بقصد أو دونه؟

المسيحيون العرب في مختلف أقطار العالم العربي الممرق اليوم بالتطرف والجنون الطائفي القاتل للعقل، عانوا عبر كل تاريخهم من التطرف. ولا أبرئ الأنظمة العربية حتى الوطنية منها التي تهاونت مع المتطرفين، ولم تطور قوانين تطرح المساواة بين المواطنين على اختلاف

عقائدهم، لنصل اليوم إلى واقع يعاني منه المسلمون ليس أقل من معاناة المسيحيين.

إن ما نهجت عليه الدول العربية الوطنية من إفراز خانة للمسيحيين العرب وكانهم عنصر دخيل على الفسيفساء الاجتماعية للمجتمعات العربية، متناسين أنهم كانوا من الحركات الأساسية لتطور الحضارة العربية الإسلامية ولتطور كل الفكر القومي العربي، قادنا اليوم إلى كل الظواهر التي تعيث دمارا بالوطن والإنسان، فالجميع يدفع ثمنها ولا فرق بين مسلم ومسيحي.

مواد التعليم مليئة بنصوص تعمق ظاهرة العداة والرفض للمختلفين دينيا، بل والتحريض على كل من يدعي أنه وطني عربي، لأن الوطنية، حسب الفكر الموبوء بالمرض هي "ظاهرة صليبية"، أو انحراف معاد للإسلام، كما يدعي صغار العقل. متجاهلين أن الإسلام كان يعني انطلاقا للقومية العربية أيضا.

للأسف حتى النظام المصري الوطني عامل للمسيحيين الاقباط حسب قانون عثماني مضت عليه قرون طويلة، لدرجة أن أي عملية إصلاح بسيطة في كنيسة ما، تحتاج إلى مصادقة من المحافظ أو



شركاء في الأرض والوطن والقضية

من الرئيس. هذا يذكرني بما كتبه المفكر المصري جلال أمين "إن تحرير الاقباط هو شرط ضروري لتحرير المسلمين".

بعد "الربيع العربي" سمعنا أن النظام طرح "العهد العمري" كقاعدة للتعامل مع المسيحيين، ولا أظن أن أي عقلاني يقرأ "العهد العمري" سيرى بها حلا بضمن المساواة، إنما نهجا لا يمكن التعايش معه في وقتنا الراهن. حتى مجرد التأكيد أن الشريعة الإسلامية هي في الدستور، في دول متعددة الديانات والثقافات هو إبقاء الواقع السيء للأقليات رهنا لتصرفات السلطة والحركات المنطرفة.

المسيحيون في فلسطين كانوا يشكلون 17 بالمئة من مجمل المواطنين، نسبتهم اليوم أقل من 2 بالمئة. في القدس كانوا يشكلون 50 بالمئة عام 1920 اليوم لا يتجاوزون 5 بالمئة من مجمل السكان العرب في القدس وربما أقل.

عائلات مسيحية كثيرة هاجرت من غزة في فترة الاحتلال الإسرائيلي، وخاصة في فترة عرفات، نتيجة المضايقات والملاحقات الدينية من الإسلاميين وحماس خاصة.

ويجيء الرجوب مضيفا المزيد من التحريض والسخرية من أقلية فلسطينية، وصفهم حضرته بجماعة الميري كريسماس!

ما زلت احتفظ بمقال نشره الأمير السعودي طلال بن عبدالعزيز في صحيفة النهار اللبنانية (29 يناير 2002)، تحت عنوان "بقاء المسيحيين العرب" كتب "إن ما يحدث للمسيحيين العرب نتاج بيئة تفتقرش التعصب والتطرف وبالتالي العنف المؤدي إلى كوارث تاريخية والأهم من ذلك كله فكرة إلغاء الآخر، وإن بقاءهم ترسيخ للدولة العصرية وللتنوع الثقافي وللتعددية

والديمقراطية ولمنع استنزاف الطاقات العلمية والثقافية من منطقتنا، وهجرتهم ضربة عميقة توجه إلى صميم مستقبلنا". واحتتم مقاله ببدء "إن هجرة العرب المسيحيين في حال استمرارها ضربة عميقة توجه إلى صميم مستقبلنا. مهمتنا العاجلة منع هذه الهجرة، ترسيخ بقاء هذه الفئة العربية في شرقنا الواحد، والتطلع إلى

هجرة معاكسة إذا أمكن". الصحافي المصري محمد حسنين هيكل كتب أيضا في وقته "أشعر، ولا بد أن يجري

يشعرون، أن المشهد العربي كله سوف يختلف حضاريا وإنسانيا وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقرا وأقل ثراء لو أن ما يجري الآن من هجرة مسيحيي المشرق ترك أمره للتجاهل أو التغافل أو للمخاوف. أي خسارة لو أحس مسيحيو المشرق أنه لا مستقبل لهم أو لأولادهم فيه، ثم بقي الإسلام وحيدا في المشرق لا يؤنس وحدته غير وجود اليهودية، بالتحديد أمامه في إسرائيل". وكتب طارق حجي "الأقليات في الشرق الأوسط هي الموصل لعوى التقدم والتحديث والسير مستقبلا".

اليوم مع انتشار وباء الداعشية وسكاكين الذبح، تبدو الصورة قاتمة مليون مرة أكثر من العقدين السابقين، عالم عربي يتراجع للمئات من السنين، هذا ضمن أهداف الحركة الصهيونية أيضا، إبقاء العالم العربي في الحضيض. مجتمع مريض متنازع. للأسف لم أجد حليفا للإستراتيجية الصهيونية أكثر من تصريحات الرجوب في ما قاله عن جماعة الميري كريسماس! قاله هو يتراجع الرجوب عن موقفه، لتبقى صفحته النضالية ناصعة!